النتاج الجديد في اللغة

« اللغات الاجنبية » ، بقلم نعيمة محمد عيد . النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٥
« تاريخ الدعوة الى العامية »، بقلم نفوسة زكريا سعيد . دار المعارف ، القاهرة، ١٩٦٤

اطروحتان ممتازتان تكمل الواحدة منهما الاخرى . الاولى تدور على دور اللغات الاجنبية الثقافي في المجتمع الجديد ، ومؤلفتها الدكتورة نعيمة محمد عيد . والثانية تدور على تاريخ الدعوة الى العامية وآثارها في مصر ، ومؤلفتها الدكتورة نفوسة زكريا سعيد .

طالعتها بشغف . وقد زاد تمسكي بها ، حتى النهاية ، ما بعثتاه فيّ من شوق وحنين الى مواضٍ عايشتها. فانا من الذين عالجوا قديما هذين الموضوعين. وناقشوا ، وناضلوا ، بل وسايفوا . كل ذلك حفاظا في بلدي لبنان على كرامة اللغة العربية . ثم لزمت الصمت لانني انتقلت الى غير العربية من معاضل الوجدان الانساني . وها انني اعود اليوم بالذاكرة الى تلك المواضي العتاق بفضل هاتين الاطروحتين. اقول:

طبيعي ان يأتي التحليل النظري بعد التحقيق العملي . لقد حققت البلاد العربية استقلالها اللغوي اولا. وها ان التحليل النظري يأتي في المقام الثاني. وهو يشتمل على اهم عناصر المعرفة ، كالتاريخ والفلسفة . فبالتاريخ يعود الفكر الى الوراء كي يستعرض المراحل التي قطعها . كيف قطعها ؟ ولماذا قطعها ؟ وبالفلسفة يستنتج الفكر عبرا وامثولات من اجل المستقبل .

اذاً ان التحليل النظري ، الذي قامت به الاطروحتان، على اساس التاريخ، هو شيء طبيعي. اذ ينبغي لنا الآن ان نقرأ بالعقل الفحيص تلك الصفحات المصيرية الخالدة التي خطها الجهاد المصري في كتاب اللغة . وقد ابدعت المؤلفتان في سرد الحوادث التي دارت على قضية اللغة العربية . والتي دارت هي ذاتها على قضايا سياسية خطيرة . لذا نرى الخطين من الحوادث يسيران بتوازٍ محكم . ولا عجب، فاللغة مظهر من مظاهر الوحدة الاجتماعية. ان كل انتفاضة لغوية تحمل فيها انتفاضة سياسية ؛ والعكس بالعكس : ان كل انتفاضة سياسية تحمل فيها انتفاضة لغوية . من هنا تداخل الانتفاضتين اللغوية والسياسية في الاطروحتين المذكورتين .

قلت واكرر ان المؤلفتين ابدعتا . وهي شهادة حق . لقد امعنتا بحثا في تاريخ هاتين المشكلتين اللغويتين فوق ارض مصر. وادركتا النتائج التالية:

ان تعلم اللغات الاجنبية ضرورة حتمية لكافة المجتمعات . وسياسة الشعوب الكبرى تتفق تماما وهذا الاتجاه. فهي تعلم ابناءها اكثر من لغة اجنبية، ذلك لان اللغة الاجنبية هي وسيلة الاتصال الاولى بعلوم الدول الاخرى وآدابها وفنونها . وهذا لا يؤثر في ثقافة المجتمع القومية . لان جذور الثقافة القومية من العمق والاصالة بحيث يتعذر على اية ثقافة جديدة ان تقضي عليها . لذا لا جدوى من فرض لغة اجنبية بالقوة .

تقول الدكتورة نعيمة محمد عيد : « نعلم يقينا ان اللغات الاوربية هي لغات بلاد وشعوب قطعت اشواطا بعيدة في ميادين العلم والفن والآداب والتقنولوجيا . وكلها ميادين اصبحنا نهتم بها اشد الاهتمام ، لعلمنا انها الدعامة الاولى لاقامة حياة اشتراكية سليمة . فهل من الصواب ان نترك اللغات الاجنبية على ما هي عليه من تدهور، او ان واجبنا القومي والثقافي يقتضي ان ننظر اليها نظرة جديدة غير متحيزة، بحيث نسخرها لخدمة اغراضنا القومية والثقافية على السواء، خصوصا وانه لم يعد ثمة ما يدعونا الى ان ننظر اليها النظرة القديمة ، نظرة الادنى الى من هو ارقى منه ؟ »

اما النتائج التي كشفت عنها الدكتورة نفوسة

زكريا سعيد حول العامية والفصحى فانها تلخص في بضع نقاط : اولا، ان العامية التي اثيرت بسببها كل تلك الضجات ظاهرة طبيعية في لغات جميع الامم وليست مشكلة خاصة باللغة العربية .

ثانيا ، ان الاوربيين هم الذين جعلوا من وجود هذه الظاهرة في العربية مشكلة . وكان هدفهم القضاء على الوحدة اللسانية عندنا .

ثالثا ، ان تأفف بعضنا من اللغة العربية الفصحى لم يكن نتيجة للشعور بعجزها عن الوفاء بحاجاتنا العلمية والادبية. وانما كان نتيجة للشك الذي أثاره فينا الاوربيون نحو الفصحى في دعوتهم للعامية .

رابعا ، ان كل ما تركته هذه الدعوة من آثار في اللغة وفي الادب قد رجح كفة الفصحى على العامية ، واوضح نظريا وعمليا حقيقة كل منهما .

خامسا ، ان الرأي العام متجه الى التمسك بالفصحى، يقويه نمو الوعي القومي، وازدياد عوامل التواصل بين البلاد العربية ، وانتشار التعليم . والادلة على تمسك الرأي العام بالفصحى لا حصر لها ، نلمسها في جنوح رجل الشارع اذا خاطب المثقفين الى تهذيب عبارته والدنو بها من الفصيح .

لا اريد ان ادخل في مناقشة لمضامين هاتين الاطروحتين . وذلك لسببين : السبب الاول يعود الى اني اجهل زوايا التاريخ المصري على ذينك الصعيدين . فانا لست من ذوي الباع الطويل في شؤون المواضي . لقد يممت طرفي نحو العلوم الفلسفية التي تنظر في العلل المتسامية على الزمان والمكان . السبب الثاني يعود الى ان النتائج التربوية – اللغوية – القومية التي ادركتها المؤلفتان لا غبار عليها . بل اتبناها من الفها الى يائها . اذ انها بالتمام تلك التي ادركتها انا ذاتي عن طريق الفلسفة . لذا هي ليست بحاجة الى النقد . فقد اماطت اللثام بصراحة عن كل ما ينبغي له ان يقال ههنا .

هل اقف اذاً عند هذا الحد ؟ كلا . ثمة ثلاثة اشياء يترتب عليّ قولها كعبر استخلصها من هاتين المجموعتين الدراسيتين .

العبرة الاولى تنحصر في ان لبنان لم يعانِ وحده مثل تينك الازمتين . لقد عانتهما الشقيقة مصر ايضا على الغرار نفسه . ولا ريب ان البلاد العربية الاخرى مرت، او انها تمر او ستمر، بالمحنة عينها . مما يعني ان الجوهر اللساني هو ذاته لدى الشعوب العربية ، وان الانتفاضة اللغوية هي ذاتها بالتالي لان النزوع التحرري هو ذاته في شرقنا . حقا دهشت عندما رأيت ان التعاريج التي اجتازها لبنان لا تختلف عن التعاريج التي اجتازتها مصر بشأن اللغة. المطالبة ذاتها بالحفاظ على كرامة اللغة العربية؛ ثم المطالبة ذاتها بعدم التهوين من قيمة اللغات الاجنبية كلغات تثقيفية ؛ واخيرا المطالبة بتعزيز اللغة العربية في جميع ميادين المعرفة . لقد ادرك لبنان ان العربية هي لغته الام .

العبرة الثانية تنحصر في ان تهافت اللغة العربية في لبنان لا يرجع الى المسيحيين وحدهم ، كما يريد البعض ان يتوهم . فقد ظن ان لبنان وحده يروج للالسنة الاجنبية ، وان لبنان وحده يروج للعامية بدل الفصحى – وذلك بسبب من المسيحيين الذين يعشّرون وحدهم اللغة العربية ويحبذون سواها . بعد مطالعتي للاطروحتين المذكورتين ، وتلمسي لجنبات هذا الموضوع فخباياه وخفاياه ، وضح لي ان القضية تتخطى الناحية الطائفية . انها من صميم الحياة الاجتماعية ، لذا تساوى فيها المسلمون والمسيحيون . من هنا كان بعض المسلمين في البلاد العربية اشد حماسة من بعض المسيحيين اللبنانيين في ذودهم عن العامية بدل الفصحى ، وعن اللغات الاجنبية بدل العربية . اذاً ، اكرر ، نحن امام ظاهرة اجتماعية لا ظاهرة طائفية ، الجانبان فيها ، المسيحي والمحمدي ، سواء بسواء ، لا افضلية لهذا على ذلك ولا لذاك على هذا. لقد اخطأنا جميعا حيال اللغة العربية. وينبغي اليوم ان نهبّ جميعا للدفاع المركز عنها .

العبرة الثالثة تنحصر في ان التمسك باللغات الاجنبية ليس ميزة لبنانية . البلاد العربية غدت تعي حقيقة لم يتنكر لها لبنان مرة واحدة عبر تاريخه : وهي ان اللغات الاجنبية تساعدنا على امور كثيرة ، اهمها واخطرها تفهم اعمق للغة العربية نفسها ، ثم تعبئة ازخم لطاقاتنا القومية . ان مصر اليوم تعزز اللغات الاجنبية تماما كما كان يفعل اللبنانيون خلال العصور . وهو نهج انساني حكيم. اذ ما من شعب يستطيع ان يكتفي بلغته الام ، لا سيما في الوقت الحاضر .

كمال يوسف الحاج